التـوبـــة

● الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

تحدثنا عن مهمة الإنسان في هذا الكون، المهمة التي خلق الله تعالى لها الإنسان، خلق الله الإنسان ليعرفه ويعبده: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

لهذا كان لا بد لنا من حديث عن هذه المهمة، عن هذه الغاية، عن هذه العبادة، وسنتحدث عن نوع من العبادة يغفل عنه الناس، فالعبادة نوعان: ظاهرة، وباطنة.

الظاهرة: كالصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، وهي أركان الإسلام العملية، ولكن هناك نوعاً آخر من العبادات له أهميته، وله ضرورته، ولا تصح هذه العبادات الظاهرة إلاّ إذا توافر ذلك اللون من العبادات الباطنة، إنها العبادات المتعلقة بالقلب، والقلب هو حقيقة الإنسان: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[1]. «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم»[2].

---

(١) هو جزء من حديث النعمان بن بشير المتفق عليه، وأوله: «إن الحلال بيّن، وإن الحرام بين» وهو السادس من الأربعين النووية، وانظر (جامع العلوم والحكم)، و(المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب) للشيخ القرضاوي: (٢/٥٠٦، الحديث ٩٦٦).

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب): (١/١٠٣ ـ ١٠٤، الحديث ٧).

القلب هو موضع نظر الله تبارك وتعالى، وهو الحجة التي تقدمها يوم القيامة إذا أردت النجاة، وهو المستند الفذ الذي به تثبت براءتك، وتثبت صحة إيمانك ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩] ، ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾ [ق: ٣٢ ـ ٣٣] ، القلب السليم. . . القلب المنيب، هو أساس الدين حقاً.

القلب عليها المعوّل، اعمل ما شئت من الأعمال الظاهرة، فلن تقبل عند الله إذا كان قلبك مغشوشاً، إذا كانت نية الرياء قد داخلتك، إذا لم تجرد النية لله وحده: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ. . .﴾ [البينة: ٥] ، ولا بد من أن يأتي وقت نتحدث فيه عن حقيقة النية والإخلاص، الذي هو أساس القبول للأعمال كلها.

ولكنا اليوم نتحدث عن عبادة قلبية مهمة، هي الخطوة الأولى في الطريق إلى الله عزوجل، هذه الخطوة هي: التوبة.

أن تتوب إلى الله سبحانه وتعالى، فإنك لا تستطيع أن تسلك الطريق إذا كنت تحمل أثقالاً تؤود ظهرك، ولا تقدر بها على أن تمشي خطوة إلى الأمام، لا بد من أن تتخفف، فلا بد من أن تسقط هذه الذنوب عن كاهلك، كيف تسقطها؟ إنما تسقطها بالتوبة، ما معنى التوبة؟ التوبة مأخوذة من (تاب)، وكلمة (تاب) في اللغة العربية تعني: عاد ورجع، كأن الأصل أن تكون دائماً مع الله، لا تفارقه، وكيف تستطيع أن تفارقه؟ ووجودك مستمد من وجوده، وحياتك وبقاؤك ورزقك وهدايتك، وكل ما بك من خير فهو منه تعالى، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ. . .﴾ [النحل: ٥٣] .

ماذا تكون أنت لولا الله؟! أنت أيها الإنسان، الطويل العريض، الذي يمشي في الأرض مرحاً، الذي يثني عطفيه، ويصعّر خدّيه، ماذا أنت لولا الله؟!.

لولا أن الله خلقك، وسواك، ونفخ فيك من روحه، وأعطاك القوة، وسخر لك هذا الكون، ورزقك العقل، وعلمك البيان، وهداك السبيل، ماذا تكون لولا الله؟!.

الله هو صاحب كل فضل عليك، وأنت بغير الله لا شيء، لا تكون شيئاً مذكوراً، ولا شيئاً موجوداً، لهذا يجب أن يكون الإنسان دائماً مع الله، فإذا شرد عن الله بالذنوب أو الغفلة، فلا بد له من أن يعود... أن يرجع إلى بيته... إلى بيته الأصلي، وذلك هو التوبة.

التوبة عودة إلى الله، عودة إلى الأصل، ومن فضل الله علينا أن رزقنا التوبة، أن أعطانا حق التوبة، فكل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون المستغفرون.

ليس عجيباً أن يذنب ابن آدم، ليس عجيباً أن يتورط في المعصية، فهذه طبيعة خلقته، أنه خلق خلقاً مزدوجاً، فيه قبضة الطين، وفيه نفخة الروح، الطين يهوي به إلى أسفل، والروح ترقى به إلى أعلى، أحياناً ينزع إلى الطين، ويخلد إلى الأرض، فيكون كالحيوان أو أضل سبيلاً، وأحياناً يعلو ويعلو، حتى يكون كالملائكة، أو أرفع مقاماً.

فلا عجب من أن يغلب الطين في بعض الأحيان على الروح، أن يغلب العنصر الأرضي العنصر السماوي، أن يغلب العنصر الحيواني في الإنسان العنصر الرباني فيه، فيقع في المعاصي.

ليس عجيباً أن يحدث ذلك، وقد عصى أبو البشرية آدم، عصى الإنسان الأول، أغواه الشيطان فأوقعه في المخالفة، دلاه بغرور، وقاسمه وزوجه: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] وقال له: ﴿...هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]، وما زال يوسوس له حتى صدقه، وأكل من الشجرة: ﴿...وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١].

هذا فارق ما بين الإسلام والنصرانية، النصرانية تجعل خطيئة آدم معلقة برقاب البشر جميعاً، فهم يحملون وزر معصية لم يفعلوها، ولم يشهدوها، لا هم، ولا آباؤهم، ولا أجدادهم، ولا أجداد أجدادهم، مع أن العدالة الإلهية أقرت في القرآن، وفي صحف موسى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [النجم: ٣٧ ـ ٣٨] .

كيف يحمل الإنسان ذنب غيره؟! ثم إن معصية آدم قد انتهت بالتوبة، الله اجتباه فتاب عليه وهدى، فآدم حينما شعر بأن الشيطان غره، وورطه في هذه المعصية، سرعان ما استيقظ هذا الكائن الواعي في ضميره، هذا الكائن الروحي، هذه النفخة: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى...﴾ [الحجر: ٢٩] ، غلب هذا العنصر، فسرعان ما رجع إلى ربه، وقرع بابه، تائباً مستغفراً، وقال هو وزوجه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] ، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧] .

انتهت معصية آدم بالتوبة، وهكذا ينبغي أن تنتهي كل معصية يقترفها أبناء آدم.

ليس عجيباً أن يذنب ابن آدم، فقد أذنب أبوه آدم، إنما العجيب أن يتمادى في الذنوب، أن يستمرىء طريق المعصية، ويتوغل فيه، أن ينسى ربه، وينسى التوبة إليه، فتتراكم عليه الذنوب، وتتراكم حتى يسودّ قلبه والعياذ بالله، وهنا الخطورة.

الخطورة في ألا يبادر الإنسان بالتوبة، النبي ﷺ يقول[1]: «إن العبد إذا

---

(١) في حديث أبي هريرة الذي رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٤٧٠، الحديث ٩٠٨).
ورواه السيوطي في (الجامع الصغير) وصححه، ولفظه: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب، صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه، وهو الران الذي ذكر الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا=

أخطأ خطيئته نكتت في قلبه نكتة، فإنه هو نزع واستغفر صقلت» أي: مسح وجلى ومحى أثر المعصية، وعاد القلب أبيض كالمرآة الصافية فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه» إذا أذنب ذنباً آخر، نكت في قلبه نكتة سوداء أخرى، ثم لا يزال يذنب وتتكاثر هذه النكت السوداء، والنقاط السوداء، حتى تزيد على القلب وتغطي عليه: فذلك الران الذي ذكر الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤].

الخطر أن يغفل الإنسان عن التوبة، ويستمر في طريق الشيطان. ولا يحسّ بما هو فيه من خطأ وخطيئة، هذا هو الخطر.

ويأتي هذا الخطر من طول الأمل، طول الأمل معناه: استبعاد الموت، أن الموت لا يزال بعيداً، وأن العمر لا يزال فيه بقية، ابن العشرين يقول: أتوب حينما أبلغ الثلاثين، وابن الثلاثين يقول: حينما أبلغ الأربعين، وابن الأربعين يقول: حينما أبلغ الستين، وابن الستين يقول: عند الثمانين، وهكذا[1].

= يَكْسِبُونَ﴾ رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه، والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي هريرة.

(١) وما أجمل ما حكاه الإمام الغزالي ـ حول هذا المعنى ـ في إحيائه، إذ يقول: والإنسان مشغوف بالأماني الباطلة، فيمني نفسه أبداً بما يوافق مراده، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا، فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه، ويقدر توابع البقاء، وما يحتاج إليه من مال وأهل دار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر، موقوفاً عليه، فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قربه، فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت، والحاجة إلى الاستعداد له، سوف ووعد نفسه وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب، وإذا كبر فيقول: إلى أن تصير شيخاً، فإذا صار شيخاً قال: إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار، وعمارة هذه الضيعة، أو ترجع من هذه السفرة، أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له، أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك. فلا يزال يسوف ويؤخر ولا يخوض في شغل إلاّ ويتعلق بإيمان ذلك الشغل عشرة أشغال أخر، وهكذا على التدريج يؤخر يوماً بعد يوم، ويفضي به شغل إلى شغل، بل إلى أشغال، إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه (الإحياء ٤/ ٤٥٦ ـ ٤٥٧) ط، دار المعرفة ببيروت.

هكذا يطيل الإنسان أمله، ولا يدري أن الموت أقرب من لمح البصر كل امرىء مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله، إنك حينما تصبح لا تدري: أيأتي عليك المساء أم لا؟ وقد جاء الحديث: «إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح»[1].

حينما تنام لا تدري أتعود الروح مرة أخرى إليك، أم تقيض في نومك؟ إنك حينما تلبس ثيابك، لا تدري أتنزعها أنت بيديك، أم تنزعها عنك يد غاسلك؟ إنك حينما تخرج من بيتك لا تدري متى تكون الخطوة الثانية وإلى أين؟ أهي إلى الطريق أم إلى القبر؟ ألم تسمع إلى الذين يموتون بالسكتة القلبية أو الذبحة الصدرية، أو بالحوادث المفاجئة.

الناس يموتون في حوادث مفاجئة في هذا العصر، حتى أن الإنسان لا يكون له علاقة بالحادث فيموت، يمشي في الطريق بعيداً فتأتي سيارة فتأخذه، طيارات تنزل على أهل قرى، لا هم راكبون فيها ولا غير ذلك، وتأتي فتأخذهم، ألم تسمعوا؟ الموت قريب وقريب، والمسألة مسألة مصيرية، إنها جنة أو نار، ليست خسارة درهم أو دينار، إما أن تخسر الجنة، وإنما أن تدخل النار والعياذ بالله، إنها أشياء خطيرة فكيف تؤجلها؟!.

لقد قيل: أكثر أهل النار (المسوّفون)، أتدرون ما المسوّفون: المسوّفون الذين يقولون: سوف نتوب، سوف نعمل، سوف نرجع، وقد قال بعض السلف: (سوف) جند من جنود إبليس، لأنك لا تضمن أن تعيش إلى الغد، لا تضمن عمرك ساعة واحدة، وحينما يأتي ملك الموت ليقبض روح الإنسان يتمنى لو أجله وقتاً قصيراً: أسبوعاً.. يوماً.. نصف يوم.. ساعة.. دقيقة، وهيهات، الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن

---

(١) من حديث ابن عمر، رواه البخاري، والترمذي، وأحمد، والبيهقي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٨٦٦، الحديث ٢٠٨٠) و(شرح السنة للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط: ١٤/٢٣٠، الحديث ٤٠٢٩).

ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون: ٩ ـ ١٠] ، لولا أخرتني إلى أجل قريب، أي مهلة.. دقائق يمكن أن يتصدق فيها ببعض أمواله، وينفق في بعض الخيرات، ويوقف بعض الأشياء على الجهات الخيرية، ويرد بعض المظالم، ويستسمح بعض الناس الذين أساء إليهم يريد دقائق يمكنه فيها أن يفعل ذلك.

كانت أمامك هذه الدقائق، وكانت أمامك الساعات، وكانت أمامك الأيام، وكانت أمامك الأسابيع، وكانت أمامك الشهور، وكانت أمامك الأعوام، كل هذا لم يكف، ثم تأتي الآن وتقول: ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠] ، وهنا يكون الرد الإلهي: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون: ١١] .

إن طول الأمل، إن استبعاد الموت، خطر على الإنسان، يجعله يسوّف ويؤخر ويؤجل في التوبة، ثم يفجأه الموت، ولم يعد له عدته، ولم يأخذ للآخرة أهبته، فالبدار البدار، قبل أن تتفاقم الذنوب وتستفحل.

إن بعض الأمراض إذا عولجت في أولها، تعالج بسهولة ويسر، فإذا تركت، فإنها تكون مضاعفات ومضاعفات، يصعب بعد ذلك علاجها، وكذلك الذنوب، كل من أذنب ذنباً فعليه أن يتوب، وعليه أن يبادر بالتوبة، وإلاّ كان ظالماً، الله تعالى يقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] .

والتوبة مطلوبة من الناس... كل الناس... التوبة مطلوبة من جميع الناس، الله تعالى يقول: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[1] [التحريم: ٨].

---

(١) وتمامها: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

المؤمنون مطالبون بالتوبة، وليس هناك إنسان يستطيع أن يقول: لا ذنب لي، فعم أتوب؟ ومم أتوب؟ أنا نقي الصفحة، مبرأ من كل عيب، وهذا هو الغرور الذي لا يليق بمؤمن، فالمؤمن يشعر أبداً أنه مقصر في حق الله عز وجل، مفرط في جنبه، هو يفعل الطاعات ويخشى ألا تقبل منه، أما المنافق فيرتكب المعاصي ويقول: أطمع أن تغفر لي! فرق بين المؤمن والمنافق، إن المؤمن يشعر دائماً بأنه لم يؤد حق الله عزوجل كما ينبغي لجلال وجهه، وسابغ نعمه وفضله، ولهذا فهو دائم الاستغفار، دائم التوبة إلى الله عز وجل.

● والناس في التوبة أصناف:

هناك من يتوب من الشرك والعياذ بالله، كما قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ...﴾ [الأنفال: ٣٨].

وهناك من يتوب من النفاق، كما قال الله تعالى في شأن جماعة من المنافقين: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤].

وهناك من يتوب من الكبائر[1]، شرب الخمر، أو اقتراف الزنا، أو تناول المخدرات، أو أكل الربا، أو أكل مال اليتيم، أو شهد شهادة الزور، أو عق والديه، أو قطع رحمه، أو فعل غير ذلك من كبائر الإثم التي ذكرها النبي ﷺ، وما أكثرها.

وكبائر الذنوب لا يصلح لها إلاّ التوبة، الصغائر يمكن أن تكفر بالحسنات، بالصلوات الخمس، بالجمعة إلى الجمعة، برمضان إلى رمضان، كل

---

(١) اختلف في تحديد الكبيرة اختلافاً كثيراً، ولعل الأرجح أنها: ما أوجب الله عليه حداً في الدنيا، أو رتب عليه وعيداً شديداً في الآخرة، وانظر تعليق الشيخ على الحديث ٣٥٨ من كتابه ـ (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب).

هذه مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر[1]، أما الكبائر فلا يكفرها إلاّ التوبة.

هناك من يتوب من الكبائر، وهناك من يتوب من صغائر المحرمات أيضاً، فالحرام حرام، وإن كان من الصغائر، لا يستصغر شيئاً بالنسبة لله عز وجل، وقد قال بعض السلف: لا تنظر إلى صغر المعصية ولكن انظر إلى كبرياء من عصيت.

إنك إذا أسأت إلى زميل لك بكلمة، فقد تكون شيئاً بسيطاً، ولكن إذا أسأت بهذه الكلمة نفسها إلى أبيك، أو إلى شيخك، فهذه تكبر وتكبر.

وهكذا نرى الشيء الواحد يتعاظم بالنسبة لمن صدر في حقه، فكيف إذا كانت إساءتك تتعلق بذات الله العلي الكبير؟ ولهذا روى البخاري عن ابن مسعود: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه، فقال به هكذا»[2] قال الراوي وأشار بيده فوق أنفه.

هذا هو شأن المؤمنين، لا يستصغرون ذنباً، بل كانوا يحذرون من استصغار الذنوب، والاستهانة بالمعاصي.

كان بعض السلف يقول: إن الذنب الذي يخشى ألا يغفر، هو الذي يقول فيه صاحبه: ليت كل ذنب فعلته مثل هذا، يعني: هذا ذنب بسيط، هذا هو الخطأ.

---

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر» (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٢٣٩، الحديث ٣٥٨).

(٢) رواه البخاري في كتاب الدعوات موقوفاً على ابن مسعود، (الحديث ٦٣٠٨) البخاري مع الفتح كما رواه أحمد في مسند ابن مسعود، وصححه الشيخ شاكر (٣٦٢٧) و(٣٦٢٩).

ولما زار بعض الصالحين أخاً لهم، ووجدوه يبكي وهو مريض، فقالوا له: يا فلان ما الذي يجعلك تبكي كل هذا البكاء؟ والله ما رأينا عليك كبيرة اقترفتها، ولا فريضة تركتها، فقال: والله ما أبكي على هذا، ولكن أخشى أن أكون قد أتيت ذنباً، أحسبه هيناً وهو عند الله عظيم!.

هكمذا قال القرآن في شأن أولئك الذي خاضوا في حديث الإفك، وتحدثوا عن الصديقة بنت الصديق بسوء، فقال الله تعالى في أمرهم: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

كلمة أحياناً... كلمة يقولها المرء لا يلقى لها بالاً، كما صح في الحديث، يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً[١]. سبعين سنة، من أجل كلمة لا يلقي لها بالاً، ولا يلتفت إليها.

قد ثبت عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت عن إحدى ضرائرها في حديث مع النبي ﷺ: ما يعجبك من فلانة إلاّ أنها ـ وأشارت بيدها تعني أنها قصيرة ـ ولم تكمل الجملة، ذكرت اسم (إنّ) بدون خبرها، فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»[٢]، كلمة جديرة أن تكدر بحراً.

الخطر في هذه المعاصي التي يستهين بها الإنسان، ويقول: هذه لا تستحق

---

(١) روى الترمذي وابن ماجه: «أنّ الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً، يهوي بها سبعين خريفاً» وروى الحاكم وصححه: «أن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يظن أن تبلغ ما بلغت يهوي بها سبعين خريفاً في النار» انظر: (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٧٤٩ ـ ٧٥٠، الأحاديث: ١٧٣٤، ١٧٣٥، ١٧٣٦).

(٢) رواه أبو داود، والترمذي، والبيهقي، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٧٤٢، الحديث ١٧٠٦)، ورواه النووي في (الأذكار) ثم قال: مزجته: أي خالطته مخالطة ـ يتغير بها طعمه أو ريحه لشدة نتنها وقبحها، وهذا الحديث من أعظم الزواجر عن الغيبة أو أعظمها، وما أعلم شيئاً من الأحاديث يبلغ في الذم لها هذا المبلغ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝﴾ [النجم: ٣ ـ ٤] نسأل الله الكريم لطفه والعافية من كل مكروه.

التوبة، لا، يجب أن يتوب الإنسان من هذا كله.

هناك من يتوب من الكبائر، وهناك من يتوب من الصغائر، وهناك من يتوب من الشبهات، فإن الشبهات مؤدية إلى الحرام: «... ومن وقع في الشبهات، وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه...»[1]، وهناك من يتوب من المكروهات، حتى المكروه لا يريد أن يقع فيه، وهناك من يتوب عن بعض المباحات، الناس درجات، وحسنات الأبرار سيئات المقربين[2].

هناك من يتوب عن مجرد الغفلة عن الله.. أنّ وقتاً مر من حياته لم يذكر الله تعالى فيه، فهو يتوب ويستغفر من هذا، وهذا ما نبه عليه النبي ﷺ حين قال: «يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة»[3].

محمد ﷺ الذي كان يراقب ربه في غدواته وروحاته، وحركاته وسكناته، وليله ونهاره، وخلوته وجلوته، ولم يغفل عن ربه طرفة عين، تنام عيناه وقلبه لا

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، وأبو داود، وابن ماجه، من حديث النعمان بن بشير، ونصه كاملاً: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإنّ حمى الله محارمه، ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٥٠٦. الحديث ٩٦٦)، وهو أحد الأحاديث الأربعين النووية، وأفاض في شرحه ابن رجب في (جامع العلوم والحكم) لما اشتمل عليه من أحكام وتوجيهات.

(٢) وهو من كلام أبي سعيد الخراز كما رواه ابن عساكر في ترجمته، وهو من كبار الصوفية، توفي في سنة مائتين للهجرة، وعده بعضهم حديثاً وليس كذلك (كشف الخفاء للشيخ اسماعيل العجلوني، برقم ١١٣٧).

(٣) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٢١)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٤٦، ٤٤٧)، وأحمد (٤/ ٢٦٠) كلهم من الأغر المزني.

ينام، مع هذا كله يقول: «توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة».

بل حدّث بعض أصحابه فقال: كنا نعد للنبي ﷺ في مجلس واحد سبعين مرة أو مائة مرة: رب اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الغفور[1].

وقد رويت عنه صيغ من صيغ الاستغفار، في قمة الصيغ، يستغفر الله في صباحه ومسائه، وسحره وسجوده، هكذا كان ﷺ.

كان يقول: «سيد الاستغفار): «اللهم أنت ربي، لا إله إلاّ أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، وأبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت»[2] هذه سيدة صيغ الاستغفار[3].

كان من أدعيته واستغفاراته ﷺ: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي

---

(١) رواه أبو داود في الصلاة (١٥١٦)، وابن ماجه في الأدب (٣٨١٤)، والترمذي في الدعوات (٣٤٣٠) وقال: حسن صحيح، وأحمد في المسند، وابن حبان في صحيحه (الإحسان: ٩٢٧) كلهم من حديث ابن عمر.

(٢) رواه البخاري، والنسائي، والترمذي، وهو من حديث شداد بن أوس (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٢٢٥، حديث ٣٣٥) وانظر: البخاري مع الفتح، حديث (٦٣٠٦)، ومعنى (أبوء): أقرّ واعترف.

(٣) قال الشيخ القرضاوي معلقاً على هذا الحديث في كتابه (المنتقى): إنما كان سيد الاستغفار؛ لأنه يتضمن جملة من المعاني الربانية العميقة: تضمن توحيد الربوبية (اللهم أنت ربي) وتوحيد الإلهية (لا إله إلاّ أنت) والإقرار بالخالقية والعبودية (خلقتني وأنا عبدك) والمبايعة لله على الوفاء (وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت) والبراءة من المعصية والاستعاذة بالله منها (أعوذ بك من شر ما صنعت) والإقرار لله بالنعمة، وعلى النفس بالذنب، (أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي) وطلب المغفرة ممن لا غفار غيره (فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت)، وما أحوج المسلم أن يودع بها مساءه، ويستقبل بها صباحه.

وعمدي وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»[1].

هذا هو الشعور بعظمة الله تبارك وتعالى، وأنه يستحق من الإنسان الكثير والكثير، وخاصة من عظمت نعم الله تعالى عليه، مثل محمد ﷺ، فهو يشعر بأنه مقصر في حق ربه عز وجل.

هناك من يتوب من مجرد أن يمر وقت لا يذكر الله تعالى فيه.

التوبة درجات، والقرآن الكريم يذكر أهل عرفات وأهل الحج، ويأنمرهم بعد هذا الموقف العظيم أن يستغفروا الله، فشأن المؤمنين دائماً بعد الطاعات أن يستغفروا، انظروا: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: ١٩٨ - ١٩٩].

بعد عرفات، بعد هذا الموقف العظيم، يطلب منهم أن يستغفروا الله، كما وصف الله المؤمنين المحسنين المتقين بقوله: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٧ - ١٨]، يقول الحسن البصري رضي الله عنه: مدوا صلاتهم إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل!!.

مم يستغفرون؟! الذين أحيوا الليل ولم يهجعوا فيه إلاّ قليلاً، عند السحر يستغفرون الله، إنه هؤلاء هم أهل الكمال، يستشعرون النقص دائماً، ولا يظنون أبداً أنهم وفوا لله حقه.

إن التوبة على درجات، كل يتوب بحسب درجته، أما نحن فإننا نتوب من

---

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٩٨) ومسلم في الذكر والدعاء (٩/٢٧) عن أبي موسى.

الكبائر والصغائر والمحرمات نتوب مما فرطنا فيه من حقوق الله وحقوق العباد، وما أكثر تقصيرنا وتفريطنا.

لا ينبغي أبداً أن نؤخر التوبة، فإننا لا ندري ماذا يُصنع بنا غداً: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ...﴾ [لقمان: ٣٤]

البدار البدار بالتوبة، البدار البدار بالتوبة قبل أن يفجأ أحدنا الموت، ويطلب التأخير ولا تأخير، والإمهال ولا إمهال فـ: ﴿...إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤].

أقول قولي هذا، واستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

* * *

● الخطبة الثانية:

أما بعد: فقد ورد في يوم الجمعة ساعة إجابة، لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلاّ استجيب له، ولعلها تكون هذه الساعة.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا أقل من ذلك، اللهم هيىء لنا من أمرنا رشداً، اللهم اجعل يوم المسلمين خيراً من أمسهم، واجعل غدهم خيراً من يومهم، وأحسن عاقبتهم في الأمور كلها، وأجرنا اللهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم أكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا، اللهم انصر إخواننا المجاهدين في فلسطين، وانصر إخواننا المجاهدين في أفغانستان، وأيد كلمة الإخوة المجاهدين العاملين للحق في لبنان، اللهم كن

للمسلمين في كل مكان، اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام اللهم رد عنا كيدهم، وفل حدهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين.

﴿رَبَّنَا . . . ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧] ، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] . اللهم آمين.

عباد الله: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل:٩٠] .

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥] .

* * *